

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه شرح العقيدة الطحاوية

د. طلال وسام احمد
جامعة تكريت - كلية التربية
سامراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ وَأَصْلِي وَأَسْلَمَ عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدَاهُ وَبَعْدَ:

فان معرفة لسان العرب كان الفيصل - ولم يزل - في فهم النصوص القرآنية وإذا ما
اقتزنت البصيرة مع تلك المعرفة حصل المتغنى ونيلت الغايات وتحققت الأهداف.

فقد استعملت بعض الفرق الإسلامية أساليب العربية - لا سيما ما يتعلق بالإعراب -
استعمالاً ليس له مسوغ ومتكلف في الوصول إلى أهداف قد يتبعها الهوى وحب الظهور هذا
من ناحية وقد يكون اختيار الرأي غير الراجح ليستدل به في توثيق الرأي من ناحية أخرى.

وقد وصل الأمر إلى طامته في استعمال الأثر النحوي في توجيه منح العقائد الإسلامية
إلى غير وجهتها مما اخرج البعض عن الملة هذا ما حدا بقلمي على تصحيح المنح العقائدي،
وذلك بما وسّع الله علي في علم النحو فاستعملته من خلال اخذ الآراء النحوية الراجحة في
فهم المسألة العقديّة والوصول إلى المعاني التي تتماشى مع السياق القرآني ومن ثم تسليط
الضوء على آراء أهل العقائد ممن خاضوا في هذا الغمار وكان جهدي منصبا على عالم عامل
كان له الفضل في حفظ آراء أهل السنة العقديّة إذ استعمل الأثر النحوي في توجيه العقائد
الإسلامية كما استعملها جل من خاضوا في علم العقائد.

واشتمل البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة فكان المبحث الأول الرؤية والفوقية، والمبحث الثاني أفعال العباد، ودرست هذين الأصلين المهمين اللذين تدور معظم الخلافات حولهما وبيئت كل اصل استعمله القاضي في فهم النصوص القرآنية الخاصة في العقائد واستدل بها على تلکما الأصلين وكيف استعمل الأثر النحوي الإعرابي في توجيه المنحى العقائدي ثم أجريت موازنة بسيطة مع بعض أدلة بعض علماء العقائد والتفسير في كل اصل.

هذا وأدعو الله العلي القدير أن أكون قد رفقت في إعطاء صورة واضحة للقارئ في فهم النصوص القرآنية عن طريق الاستعمال اللغوي عند محاولته تدبر كل نص من نصوص القرآن الكريم لا سيما التي تتعلق بعقيدته.

المبحث الاول: ((الرؤية والفوقية))

اختلف العلماء في بيان هذا الأصل العقائدي، وكان محور هذا الخلاف متعلقا بما يعرف بالتجسيم واستدلوا بالنصوص القرآنية وحاولوا الوصول إلى نظرة متوازنة ودقيقة في فهم النصوص القرآنية المتعلقة بهذا الأصل، وكالمعتاد كان للأثر النحوي أهمية في ذلك. وفيما يأتي بيان لهذا الأثر عند القاضي ابن أبي العز وقد قسمته على قسمين:

أولاً: الرؤية

ذكر القاضي هذه المسألة، ونحا بها منحا منطقيًا، فقال ((وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدّق الرائي البصر في شعاعها، ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي فإذا كان في الدار الآخرة اكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته)) (١).

واستدل القاضي ببعض النصوص على هذا الاصل بقوله تعالى (قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِيْ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا) (الأعراف: من الآية ١٤٣). فقال ((وأما دعواهم تأييد النفي بـ (لن) وان ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد، فإنها لو قيّدت بالتأييد لايدل على دوام النفي

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

في الاخرة فكيف اذا أطلقت... ولأنها لو كانت للتأييد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها)) (٢).

وذكر نصا قرآنيا آخر استدل به وهو قوله تعالى (وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ)

(القيامة: ٢٢-٢٣)

فقال ((فان النظر له عدة استعلامات بحسب صلواته وتعدّيه بنفسه فإن عدّي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله (انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ) (الحديد: من الآية ١٣)، وان عدّي بـ(في) فمعناه التفكير والاعتبار كقوله (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (لأعراف: من الآية ١٨٥) وان عدّي بـ(إلى) فمعناه المعاينة بالإبصار كقوله تعالى (انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ) (الأنعام: من الآية ٩٩) فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر)) (٣).

وعلق القاضي تعليقا لغويا في مفردة (رأى) فقال ((ولا شك أن رأى تارة تكون بصرية وتارة قلبية وتارة تكون من رؤيا الخُلم وغير ذلك ولكن ما يخلوا الكلام من قرينة تخلّص أحد معانيه من الباقي وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلّصة لأحد معانيه لكان مجملا ملغزا لا مبيّنا موضحاً)) (٤).

واستدل القاضي بنص اخر وهو قوله تعالى (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الأنعام: ١٠٣) فقال ((المعنى أنه يُرى ولا يُدرك ولا يُحاط به... فان الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية... فالرؤية والإدراك كل منهما يُوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك كما يُعلم ولا يُحاط به علما)) (٥).

وبعد أن استعرضنا آراء القاضي في هذا الأصل كان للعلماء آراء أخرى سنيين أهمها:

ذكر الزجاج (٣١١هـ) أن الله تعالى يُدرك أبصار العباد والعباد لا يُدركونه، أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر، أي أن الأبصار لا تُحيط به وأن رؤية الله قد تحصل ففي قوله تعالى (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) لا ينفي الرؤية بل ينفي الإدراك وهو بمعنى الإحاطة بحقيقته جلّ شأنه (٦). واستدل مكي (٤٣٧هـ) بقوله تعالى (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) فقال ((ودخول (إلى) مع النظر يدل على أنه نظر العين وليس من الانتظار ولو كان من الانتظار لم تدخل معه (إلى)) (٧) وعلق على بعض الآراء فقال: ((فمن قال أن ناظرة بمعنى منتظرة فقد اخطأ في المعنى وفي الإعراب ووضع

الكلام في غير موضعه... وذهب بعض المعتزلة إلى أن ناظرة من نظر العين ولكن قالوا معناه إلى ثواب ربها ناظرة وهو إيضاح خروج عن الظاهر ولو جاز هذا لجاز نظرت إلى زيد بمعنى نظرت إلى عطاء زيد وهذا نقض لكلام العرب وفيه اختلاط المعاني ونقضها)) (٨).

ونفى القاضي عبد الجبار (٤١٥ هـ) رؤية الله واستدل بقوله تعالى (لن تراني) وذكر أن (لن) تدل على نفي المستقبل أبدا، (٩) واستدل أيضا بقوله تعالى (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) على تلازم معني الإحاطة والبصر، فذكر أن الله تعالى استعمل أسلوب النفي المطلق العام من غير تخصيص وأن الإدراك إذا قرن بالبصر زال عنه الاحتمال أي احتمال المقصود بالبصر غير الرؤية سواء كان هذا في النفي أو الإثبات (١٠).

واستدل الزمخشري (٥٣٨ هـ) بقوله تعالى (لَنْ تَرَانِي) و (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) فقال: ((فإن قلت ما معنى (لن) قلت تأكيد النفي الذي تعطيه (لا) وذلك أن (لا) تنفي المستقبل تقول (لا أفعل غدا) فإذا أكدت نفيها قلت لن أفعل غدا... فقولته (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) نفي للرؤية فيما يستقبل و(لن تراني) تأكيد وبيان لأن النفي مناف لصفاته)) (١١). وقد لجأ الزمخشري إلى التأويل في قوله تعالى (وَجُودٌ يُؤْمِنُ بِنَاصِرَةٍ* إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) فقال: ((والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه)) (١٢). واستنبط الرازي (٦٠٤ هـ) في قوله: (لَنْ تَرَانِي) فقال: ((إنه تعالى جائز الرؤية وذلك لأنه لو كان مستحيل الرؤية لقال، لا أري)) (١٣).

وقال الطبرسي (القرن السادس الهجري): ((إن النظر لا يفيد الرؤية في اللغة، فإنه إذا علّق بالعين أفاد طلب الرؤية، كما أنه إذا علّق بالقلب أفاد طلب المعرفة)) (١٤).

ورجح القرطبي (٦٧١ هـ) عدم رؤية الله في الدنيا فقال: ((لَنْ تَرَانِي) أي: في الدنيا، ولا يجوز الحمل على أنه أراد: أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك لأنه قال (إليك)، وقال (لَنْ تَرَانِي) ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل، كما أعطاه سائر الآيات)) (١٥).

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

ونقل أبو حيّان (٧٤٥ هـ) بعض الآراء في قوله تعالى: (لَنْ تَرَانِي) قائلاً: ((وقال الكرمانى وغيره في الكلام محذوف تقديره (لن تراني في الدنيا) وقيل: لن تراني بسؤالك، وقيل: لن تراني ولكن ستراني حين أتجلى للجبل)) (١٦).

واستدل الصابوني بقوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) فقال: ((الآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية فلم يقل تعالى لا تراه الأبصار)) (١٧).

وإذا أردنا أن نقول في هذا الأصل. فأرى إن نستعرض النصوص التي دار عليها الكلام، ثم نعلّق عليها ونرجّح ما وافق الرأي النحوي الراجح مما لا يتعارض مع المعنى العام للسياق. وفيما يأتي أبرز هذه النصوص:

الأول: قول تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (لأعراف: ١٤٣ - ١٤٤)

الذي يظهر من هذا النص - والله أعلم - أن الله سبحانه وتعالى يصطفي من البشر في الدنيا والآخرة على السواء بكلامه ورؤيته ورسالته وأي شيء يريد به هو جلّ وعلا وفيما يأتي بيان ذلك: قال الله تعالى: (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) أي أن الله سبحانه وتعالى قد أكمل قوى موسى عليه السلام حتى أطاق سماع كلام الله - والله أعلم - وقد استعمل الله سبحانه وتعالى أسلوب التوكيد بالمصدر في قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء: من الآية ١٦٤) ف(تكليماً) توكيد بالمصدر مما لا يحتمل الشك عند العربي أن الكلام من قبل الله سبحانه وتعالى قد حصل البتة بدون واسطة.

وقد ورد في الأثر أنه قد يحصل هذا أيضاً لغير موسى كما في قوله ﷺ لجابر بن عبد الله حيث قال: (إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً وما كلم أحد قط إلا من وراء حجاب) (١٨)، وإذا عدنا إلى سياق النص السابق يوضح مخاطبة الكافرين لله سبحانه وتعالى وهم يصطرخون في النار كما أشار قوله تعالى: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ* قَالَ اخْسأُوا فِيهَا وَلَا

تُكَلِّمُونَ) (المؤمنون: ١٠٧-١٠٨). فالنص يدل على وجود مخاطبة مباشرة بين هؤلاء الكفار وبين الله جل جلاله فهم استطاعوا سماع كلام الله المتمثل بالزجر وعدم تكليمه في رفع العذاب (١٩)، أي انهم سموه دون واسطة، ونص آخر يوضح أنهم استعملوا الواسطة في مخاطبة ربهم كما في قوله تعالى: (وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتِبْتُمْ) (الزخرف: ٧٧)، أي انهم طلبوا من مالك خازن النار أنهم فأجابهم مقيمون في العذاب (٢٠).

وما قيل في الكلام يقال في الرؤية، فموسى طلب النظر لا غير كما أوله بعض المفسرين وكما رأينا بديل أن الفعل (نظر) تعدى بحرف الجر (إلى) مما تأكد عند العربي أن معناه الإبصار. إلا إن الله سبحانه وتعالى لم يصطف بصره لكي يراه لحكمة هو يعلمها كما اصطفى سمعه كي يسمعه، واستعمل الله عز وجل أداة النفي (لن) الدالة على تأكيد النفي غيره المقيد بزمن إلا مع القرينة التي تصرفها إلى زمن معين، وأنها لو كانت مقيدة للتأييد لم يجز عند العربي أن يحدد الفعل الذي بعدها، وقد حدد القرآن الكريم (لن) بقوله: (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (البقرة: ٩٥) ولو كانت (لن) تفيده معنى التأييد لما أتى بكلمة (أبد) فهي القرينة التي صرفت (لن) إلى التأييد.

وإذا رجعنا إلى النص الأساس نرى إن (لن) أفادت معنى الحال أو الاستقبال لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد معنى التأييد لعدم وجود القرينة الدالة عليه.

أما مفردة (ترى) عندما تسبق بنفي فلا تدل على أن المنفي مستحيل الرؤية، ولو أبدلت بمفردة (أرى) وسبقها نفي لحصلت الاستحالة، ألا ترى أنه لو كان بيد رجل حجر فقال له إنسان ناولني هذا لاأكله، فانه يقول له لا يُؤْكَلُ، ولا يقول له لا تأكل، ولو كانت بيده تفاحة أو أي شيء يُؤْكَل، فإنه يقول لمن أراد أن يأخذه: لا تأكلها أي هذا مما يُؤْكَل ولكني لا أعطيها (٢١).

وعلى هذا يكون المعنى عند استعمال كلمة (لن تراني) في السياق: أي تجوز رؤيتي ولكن لن تراني أنت، أما حادثة الجبل فما هي إلا وسيلة إيضاح وعقوبة في نفس الوقت لموسى عليه السلام، فوضح له أنه سأل ما لم يؤته الله سبحانه وتعالى سواء أكان طمع في رؤيته بعد أن استطعم كلامه، أو أنه استجاب لرغبة قومه في هذا المطلب (٢٢)، بعد أن أخبره الله أنه لن

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

يصطفيه بالنظر كما اصطفاه بالسمع، فحلّت عليه العقوبة وصعق، فجاء التنزيه عن كل ما حصل
تعقبها التوبة والشكر على نعمتيّ الرسالة والكلام.

الثاني: قوله تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(الأنعام: ١٠٣)

الذي يبدو من هذا النص - والله أعلم - أنه إذا كان الإدراك بالبصر يعني الرؤية فهو معبر عنه
بأسلوب النفي وليس بالنهي إذ أنه لا يحتمل القطع بذلك أي أنه لا يرى الله إلا من قواه الله
وأعانه على ذلك سواء في الدنيا أو الآخرة كما قلنا آنفاً.

والذي أميل إليه ويؤكد السياق أن الله سبحانه يتحدث عن عظمته وقدرته ويدعو أهل
البصيرة إلى الإيمان به ومعرفته وذكر الأشياء التي تحتاج إلى بصيرة أكثر مما تحتاج إلى البصر
فقال: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) (الأنعام: من الآية ٩٥) وقال: (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ) (الأنعام: من
الآية ٩٦) وقال: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا) (الأنعام: من الآية ٩٧) وقال: (وَهُوَ
الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (الأنعام: من الآية ٩٨) وقال: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً) (الأنعام: من الآية ٩٩) وقال: (يَبْدِئُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الأنعام: من الآية ١٠١) هذه كلها
نصوص تسبق النص الشاهد وهي مترابطة فيما بينها، إلا ترى إن هذه الآيات البيّنات تحتاج إلى
البصيرة والتدبر لا إلى البصر والرؤية، ثم قال بعد النص الشاهد مما يؤكد هذا المعنى (البصيرة)
وهو قوله تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) (الأنعام: من
الآية ١٠٤) وقال: (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) (الأنعام: من الآية ١٠٥) وقال: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ
وَأَبْصَارَهُمْ) (الأنعام: من الآية ١١٠).

ألا ترى أن هذه الآيات تدعو إلى البصير وأنها من الآيات الباهرة التي تحار لها
العقول ولا تستطيع إدراك كنهها إلا من لطف الله به وأعانه على إدراكها والملاحظ أيضاً إن
الكلام موجّه إلى الكافرين الذين عجزوا عن إدراك هذه الآيات المعجزات ولم يوجهوا عقولهم
إليها وعموا وصمّوا فوصفهم الله بقوله: (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) فأعماهم الله عن إدراك هذه الحقائق
التي تحتاج إلى الإدراك بالبصيرة لا بالبصر والرؤية وكذلك يحتمل هذا المعنى كل ما ورد في
القرآن من ألفاظ العمى والصم والختم إذا أضيفت إلى لفظ الجلالة.

الثالث: قوله تعالى: (وَجُوهٌ يُؤْمِنُ بِرَبِّهَا نَاصِرَةٌ* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) الذي يبدو من هذا النص - والله أعلم - أن المراد بالنظر هنا الرؤية وكما قلنا سابقاً إن الله سبحانه وتعالى يقوِّي الآدميين فيستطيعون رؤيته جل وعلا فالنظر إذا تعدى ب (إلى) كان المراد به المعاينة بالبصر لا غير ويؤيد ذلك قوله ﷺ (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر) (٢٣).

و نستطيع القول في هذا الشق من الأصل إن الله يجب أن يرى لأنه موجود وعدم الرؤية تنفي الوجود، وما حجبت الرؤية إلا لقصور في الرائي لا في المرئي وهذا ما أقر شرعاً وعقلاً وأثبتناه لغة.

ثانياً: الفوقية

ذكر القاضي هذا الأصل بأسلوب المنطق فقال: ((ولو لم يتَّصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه، غير مخالط للعالم لكان متصفاً بضد ذلك لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق)) (٢٤).

وذكر القاضي النصوص المتنوعة المحكمة على علو الله خلقه وكونه فوق العباد مع الأدلة (٢٥) وسنذكر منها ما يتعلق بالأساليب النحوية التي تدل على إثبات هذا الأصل وفيما يأتي بيان هذه النصوص.

قال القاضي: ((أحدها التصريح بالفوقية مقروناً بأداة (من) المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)(النحل: من الآية ٥٠). الثاني ذكرها مجردة عن الأداة كقوله: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)(الأنعام: من الآية ١٨) (٢٦).

وقال أيضاً: ((وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه، فإن قالوا بل علو المكانة لا المكان فالمكانة: تأنيث المكان والمنزلة: تأنيث المنزل فلفظ المكانة والمنزلة يستعمل في المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل في الأمكنة الجسمانية... فإذا عرف أن المكانة والمنزلة تأنيث المكان والمنزل، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له، فعملو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقية)) (٢٧).

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

أما أقوال العلماء في هذا الأصل فذكر القاضي عبد الجبار معنى الفوقية فقال: ((و فوق)) إنما تستعمل في اللغة بمعنى المكان إذا علا على مكان غيره... ومتى قيل القول في بعض الأوصاف فالمراد به المبالغة في تلك الصفة)) (٢٨).

واستدل الزمخشري بقوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) فقال: ((مَنْ فَوْقِهِمْ) إن علقته ب (يخافون) فمعناه يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته (بربهم) حالاً منه فمعناه يخافون ربهم عالياً لهم قاهراً)) (٢٩).

وقال الطبرسي: ((وإنما قال (من فوقهم) لوجهين أحدهما إن المراد يخافون عقاب ربهم، وأكثر ما يأتي العقاب المهلك إنما يأتي من فوق، والآخر إن الله سبحانه وتعالى لما كان موصوفاً بأنه عال متعال بمعنى أنه قادر على الكمال حسن أن يقال من فوقهم ليدل على أنه في أعلى مراتب القادرين)) (٣٠)

ووصف أبو حيان الفوقية المكانية بالاستحالة بالنسبة لله جل جلاله (٣١).

ووصفها القرطبي بقوله: ((فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم أي هم تحت تسخير، لا فوقية مكان)) (٣٢).

وبعد هذا السرد لأقوال العلماء في هذا الأصل نقول وبالله التوفيق: إن الله تعالى محيط بمخلوقاته جمعياً وعلى علوه المكاني الذي هو فوق السموات والأرض وهذه الإحاطة تقتضي العلو المنزلي المتمثل بالقهر والغلبة.

وقد يحيط الله بعض مخلوقاته بشيء من رؤيته وعلمه وسمه وكلامه شرط إن يشاء الله ويعطي المخلوق طاقة تتحمل هذه الصفات المتعلقة بالخالق، كما حدث للجبل عندما تجلى له شيء من الخالق فقال تعالى (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) وكما علم بعض عباده كما قال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (البقرة: من الآية ٢٥٥) وكما كلم موسى فقال تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء: من الآية ١٦٤)، وكما أسمع جبريل كلام الله المنزل على أنبيائه. وهذا يفسر لنا ما حدث لموسى عليه السلام من الكلام، ولسيدنا محمد ﷺ من الرؤية، ولأهل الجنة من الرؤية والكلام.

وبعد فان الرؤية دليل عقلي على وجود الله تعالى فكل موجود لابد له من رؤية (٣٣) وصفات متعلقة.

ونرجع إلى تدبر النصين المختلف فيهما ونبين الأثر النحوي في ترسيخ المعاني الأنفة الذكر:

أما النص الأول فقول تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (النحل: ٥٠) يدل السياق أن الكلام خاص بالملائكة (٣٤) ومكان الملائكة السموات والله سبحانه وتعالى فوق مكان الملائكة التي في السموات وهذا يدل على أن كلمة (فوق) تدل على الفوقية المكانية، وهذا لا يمنع فوقية العلو والمنزلة والقهر، والملائكة يعرفون ذلك بدهة، واستعمال فوق في اللغة ظاهر لا يحتاج إلى تأويل وهو كما قال أهل اللغة الفوق المكاني إذا علا على مكان غيره فمكان الله جل وعلا يعلو على مكانة الملائكة وعلى كل مخلوق من باب أولى، وهذا ما يتوافق مع النص والله أعلم.

أما النص الآخر وهو قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْخَبِيرُ) (الأنعام: ١٨).

فيدل السياق على العلو المنزلي الذي يتضمن القهر والغلبة والقدرة لا العلو المكاني حيث خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة فقهرها (٣٥) ولو تتبعنا النصوص التي قبله وبعده، فبرى ذلك جلياً واضحاً وهو يخاطب الذين في قلوبهم مرض فقوله (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (الأنعام: من الآية ١٢) وقال: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) (الأنعام: من الآية ١٣) وقال: (قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ) (الأنعام: من الآية ١٤) وقال: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الأنعام: ١٧) ثم قال بعد النص المختار (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ) (الأنعام: من الآية ١٩).

وخلاصة الذي يظهر في هذا في الشق من الأصل ويتناسب مع السياق أن الله سبحانه وتعالى مكانه ومكانته عالية، فمكانه فوق السموات السبع وفوق العرش، ومكانته بالقهر والغلبة والقدرة التي لا يحيط بها أحداً من خلقه، فهو من مكانه يحيط بخلقه إحاطة تامة ويُدرك

الأثر النحوي في الأصول العقدية عند القاضي ابن أبي العز الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

خلقة إدراكاً محكماً من حيث لا يُدركونه. فالعقل لا يأبى هذا الكلام ولا الشرع، وتأييده اللغة كما وضحنا.

المبحث الثاني : ((أفعال العباد))

ذكر القاضي هذا الأصل بقوله: ((فانهم متفقون على أن الله على عبده المطيع نعمة دينية خصّه بها دون الكافر وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات: من الآية ٧) فالقدرية يقولون: هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق، والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن ولهذا قال: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) والكفار ليسوا راشدين)) (٣٦).

وقال أيضاً: ((فأما ما استدلت به الجبرية قوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (الأنفال: من الآية ١٧) فهو دليل عليهم لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رمياً، بقوله (إذ رميت) فعلم أن المثبت غير منفي وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء فابتدأه الحذف وانتهأه الإصابة وكل منهما يسمى رمياً فالمعنى حينئذ - والله تعالى أعلم - وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب، وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى! وما صمت إذ صمت! وما زنت إذ زنت! وما سرقت إذ سرقت! وفساد هذا ظاهر)) (٣٧).

وقال أيضاً: ((قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) (الرعد: من الآية ١٦- والزمر ٦٢) أي: الله خالق كل شيء مخلوق فدخلت أفعال العباد في عموم (كل)... وكذا قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات: ٩٦) ولا نقول لأن (ما) مصدرية أي خلقكم وعملكم إذ سياق الآية ياباه لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت والآية تدل على المنحوت مخلوق لله تعالى وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له، بل الخشب والحجر لا غير)) (٣٨)

واختلف العلماء في هذا الأصل فقال الطبري: ((وقوله: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) فيه وجهان أحدهما: أن يكون قوله (ما) بمعنى المصدر فيكون معنى الكلام: والله خلقكم وعملكم والآخر: أن يكون بمعنى (الذي) فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تعملونه: أي الذي تعملون منه الأصنام وهو الخشب والنحاس والأشياء التي كانوا ينحتون منها أصنامهم)) (٣٩).

وقال الزجاج: ((ولا يحدث شيء إلا بمشيئته وعن علمه، إما أن يكون علمه حادثاً فشاءه حادثاً أو علمه غير حادث فشاءه غير حادث ولا يجوز لما أمكن من التصرف أن يحدث الممتنع موجوداً، ولا يكون ما علمه أنه يوجد ممتنعاً... وهم جارون على ما علم منهم أنهم يختارون الطاعة ويختارون المعصية فلا سبيل أن يختاروا خلاف ما علم أنهم يختارونه)) (٤٠).

وقال القاضي عبد الجبار: ((وخلق يقتضي أنه قدر، ودبر، ولا يوجب في اللغة أنه فعل ذلك وأحدث... ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته انه تعالى وان لم يحدث أفعال العباد فقد قدرها ودبرها وبين أحوالها، فهذا وجه)) (٤١).

وقال مكي القيسي في قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: ٤٩): ((كان الاختيار على أصول البصريين رفع (كل)... والاختيار عند الكوفيين النصب فيه وقد اجمع القراء على النصب في (كل) على الاختيار فيه عند الكوفيين ليدل ذلك على عموم الأشياء المخلوقات أنها لله... وإنما دل النصب في (كل) على العموم لأن التقدير: إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر فخلقناه تأكيد وتفسير لخلقنا المضمرة الناصب لـ (كل) وإذا حذفته وأظهرت أول صار التقدير إنا خلقنا كل شيء بقدر، فهذا لفظ عام يعم جميع المخلوقات ولا يجوز أن يكون (خلقناه) صفة لـ (شيء) لأن الصفة والصلة لا يعملان فيما قبل الموصوف)) (٤٢).

وقال الزمخشري: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) يعني خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام... فإن قلت: فما أنكرت إن تكون (ما) مصدرية لا موصولة ويكون المعنى والله خلقكم وعملكم... وشيء آخر وهو أن قوله (وما تعملون) ترجمة عن قوله (ما تنحتون) و (ما) في (ما تنحتون) موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن اختها إلا متعسف)) (٤٣).

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

وذكر الرازي آراء بعض النحويين في قوله تعالى: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) فقال: ((اتفقوا على أن لفظة (ما) مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله (وما تعملون) معناه وعملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبنى ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه وزعم إن هذا لا يجوز في الفعل المتعدي وذلك يدل على إن (ما) مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الاخفش وإذا سلمنا إن ذلك قد يكون بمعنى المصدر لكنه أيضا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه الأول: قوله: ((أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)) (الصفات: من الآية ٩٥) والمراد بقوله ما (تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت، فوجب إن يكون المراد بقوله (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر. الثاني: إن العرب تسمي محل العمل عملاً... فكان حمله هاهنا على المفعول أولى لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام لا بيان أنهم يوجدون أفعال أنفسهم)) (٤٤).

وقال الطبرسي: ((ومن قال إنه في قوله (وخلق كل شيء) دلالة على خلق أفعال العباد فجوابه: إن المفهوم منه انه أراد المخلوقات كما يفهم المكاولات من قوله: (أكلت كل شيء) والمخلوقات كلها فيها من التقدير العجيب يضاف خلقها إليه سبحانه على انه سبحانه قد نزه نفسه عن إفك العباد وكذبهم فلو كان خلقاً له لما تتره عنه)) (٤٥).

وقال القرطبي: ((وقيل إن (ما) استفهام ومعناه التحقير لعملهم وقيل: هي نفي والمعنى وما تعملون ذلك لكن الله خالقه والأحسن أن تكون (ما) مع الفعل مصدراً والتقدير: والله خلقكم وعملكم وهذا مذهب أهل السنة: إن الأفعال خلق لله عزل وجل واكتساب للعباد)) (٤٦).

وقال أبو حيان: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ))، الظاهر أن (ما) موصولة بمعنى (الذي) معطوفة على الضمير في (خلقكم) أي أنشا ذواتكم وذوات ما تعملون من الأصنام والعمل هنا هو التصوير والتشكيل)) (٤٧)

وإذا أردنا أن نوجه هذا الأصل من الناحية اللغوية فنقول وبالله التوفيق: إن هذا الأصل

له عدة محاور:

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

الأول: خلق الله الخير والشر:

سوف نستعرض في هذا المحور نصوصاً كثيرة حملت بين طياتها حقيقة هذا المحور من الأصل منها:

١- قوله تعالى: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (الفلق: ٢).

يقول النحاة: إن (ما) هنا موصولة أي أنها اسم موصول بمعنى الذي والضمير محذوف من الصلة. فيكون المعنى من شر الذي خلق أي أن الله خلق الأشياء كلها خيراً وشرها والمعنى لا يتغير إذا كانت (ما) مصدرية بمعنى من شر خلقه إلا أن الضمير هنا غير محذوف من الكلام (٤٨).

و الذي أميل إليه ويؤكدّه السياق القرآني سواء أكانت (ما) مصدرية أم موصولة فالله خالق الموجودات كلها فالخير والشر موجودان فلا بد لهما من موجد إذ يستحيل على العقل إن يوجد الشيء بلا موجد.

٢- قوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) (الأنعام: من الآية ١٠١).

يرى النحاة: أن (كل) تفيد الإحاطة والعموم (٤٩) ولهذا أميل ويؤكدّه السياق فإن (كل) المضافة هنا تدل على معنى الشمولية وإنها متى ما أضيفت إلى نكرة روعي معناها لا لفظها (٥٠) فيكون المعنى حينئذ إن الله عز وجل خلق الأشياء كلها على العموم وأحاط بها وأنه موجد الأشياء من المعبودات وغيرها (٥١).

٣- قوله: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: ٤٩).

اختلف النحاة في اختيار قراءة (كل) وتوجيهها والذي اختاره قراءة نصب الأقرى والأشهر (٥٢) فهي تتماشى مع السياق الذي يفيد العموم وأداته (كل) المنصوبة بفعل محذوف يفسره المذكور أي إنا خلقنا كل شيء فلهذا اتصلت الهاء بالفعل المذكور (خلقناه) (٥٣) للدلالة على أن هذا المعنى هو المراد أي إن الله خلق كل شيء بقدر.

٤- قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصفات: ٩٦).

وبعد أن ذكرنا اختلاف النحاة في إعراب (ما) وما تبعها من اختلاف المعاني فأرجح رأي من قال إن (ما) موصولة لتناسقها مع السياق فيكون المعنى والله خلقكم والذي تعملون من الأصنام المصنوعة من الحجارة والخشب وغيرها فالكلام على الذوات لا على الأشكال فالأشكال هم الذين صنعوها بأيديهم وهذا يتماشى مع السياق أيضا لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم حيث قال لهم: (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) أي تعبدون الذي تنحتون فهي بالفعل مفسرة إلى الجملة التي بعدها وهو قوله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) و (ما) في الجملتين موصولة. وهذا ما وضحه الزمخشري - رحمه الله - واستبعد أن تكون (ما) مصدرية وكذلك تبعه القاضي الدمشقي (٥٤).

الثاني: المشيئة والهدى والضلال:

لا بد أن نرجع في هذا المحور إلى المعنى اللغوي في هذه الألفاظ حيث استعمل الله جل وعز (الهدى) و (المشيئة) و (الضلال) بحسب ورودها في السياق القرآني استعمالات عدة وحسب معانيها اللغوية، فالمعنى المعجمي ل (الهدى) هو الرّشاد والدلالة والمعرفة (٥٥). والمعنى المعجمي ل (شاء) هو الإرادة (٥٦). والمعنى المعجمي ل (الضلال) هو الضياع والهلاك (٥٧).

وفيما يأتي أهم النصوص القرآنية التي في هذا المحور من الأصل:

١- قوله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير: ٢٩).

استعمل هذا النص أسلوباً من أساليب العربية وهو أسلوب الحصر المتكون من (ما) النافية و (إلا) الاستثنائية فيكون المعنى السياقي نتيجة لهذا الأسلوب اللغوي إن الإنسان يشاء أي انه يريد إلا أن إرادته محصورة بإرادة الله سبحانه ولا يخرج عن إرادة مولاه وإذا خرج كما يدعي بعضهم ففي هذا إثبات صفة نقص للخالق فكيف يخرج المخلوق عن تصرف أو قدرة الخالق ! وهو فساد يعينه عقلاً وشرعاً ولغَةً.

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

ومن هنا يتضح الفرق بين مشيئة العبد ومشية الخالق فآن مشيئة العبد كما قلنا محدودة سواء بالأعمال الدنيوية أم العقديّة فهي لا تخرج عن مشيئة الله الأزلية حيث سبق في علمه وإرادته كل ما كان وما يكون وما هو كائن.

٢- قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (الكهف: من الآية ٢٩).

فهذه الآية تثبت مشيئة العبد وإرادته في اختيار طريق الأيمان أو الكفر وإرادته هذه محدودة حيث لا تخرج عن مشيئة الله وعلمه الأزلي أنه سيختار الطريق الذي اختاره بإرادته هذه.

٣- قوله تعالى: (فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ) (البروج: ١٦).

هذا النص يثبت أن مشيئة الله مطلقة لا يُحيط بها غيره جل جلاله ويؤكد هذا الاستعمال اللغوي فإن (ما) موصولة عامة أي أنه سبحانه يفعل كل ما يريد فعله سواء في إرادته المتعلقة بفعله أم بفعل عباده (٥٨) وكذلك استعمال صيغة المبالغة (فَعَالٌ) أي أن إرادته جل وعلا متناهية وهي ترجع إلى معنى الصفة الراسخة الدالة على الإكثار في الفعل (٥٩).

٤- قوله تعالى: (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة: من الآية ٢٨٤).

هذا النص يثبت أن الله تعالى قادر ومحيط بكل موجود من خلال استعمال النص للفظ (كل) الدال على الإحاطة والعموم (٦٠) وكذلك استعمال صيغة المبالغة (فَعِيلٌ) وهي في هذا النص (قدير) للسبب اللغوي السابق نفسه.

أما استعمال لفظ (الهدى) و (الضلال) في النصوص القرآنية فهما متلازمان متناقضان من حيث المعنى حيث يتصل معناهما اللغوي بمعناهما الاصطلاحي والنصوص على ذلك كثيرة منها قوله تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: ١٠) وقال تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان: ٣) ويتضح من هذين النصين إن الله هدى الناس إلى طريق الخير والشر أي عرفهم بالطريقين ثم علم بعلمه الأزلي إن الإنسان سيختار أحد الطريقين بمشيئته وإرادته ثم وفق الله وثبت وحبب طريق الأيمان للإنسان المؤمن المختار الخير بإرادته وكره إليه طريق الكفر والعصيان، والراشد من اختار بإرادته ومشيئته طريق الإيمان. وبين ذلك هذه النصوص واشباهها

منها قوله تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ* فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحجرات ٧-٨) وقوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) (إبراهيم: من الآية ٢٧) وقوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: من الآية ٥٦). وإذا ما اختار الإنسان طريق الشر بمحض إرادته أضله الله وختم على سمعه وقلبه وطبع عليه وجعل على بصره غشاوة وبين هذا المعنى هذه النصوص واشباهها فمنها قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (الجاثية: ٢٣)، وقال تعالى (وَأَمَّا مَنْ يَخِلُّ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل: ٨-١٠)، وقال تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) (البقرة: من الآية ١٠)، وقوله تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (فصلت: ١٧)، وإذا ما اخترنا من هذه النصوص الأثر اللغوي المتعلق بهذا المحور فنقول وبالله التوفيق:

١- قوله تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَانَ ٠٠) (الحجرات: من الآية ٧).

ذكر أهل اللغة أن صيغة (فعل) التي وردت في النص بلفظي (حبب) و(كره) تأتي لمعان منها التكثير والتعدية والصورورة ونسبة الشيء إلى أصل الفعل والتوجه إلى الشيء وقبول الشيء (٦١).

والذي أراه ويتمشى مع سياق النص أن هذه الألفاظ (حبب، زين، كره) قد خرجت إلى معنى التكثير في الفعل أي أن الله سبحانه وتعالى حين علم أنكم راشدون في اختياركم طريق الإيمان ومحبتكم إليه زادكم محبة وجعله أكثر حسنا في قلوبكم (٦٢)، وحين علم الله أنكم كرهتم طريق الكفر والفسوق والعصيان كرهه في قلوبكم أي زادكم كرهاً له وكثرة في الكراهية، والذي اختار طريق الكفر والفسوق والعصيان واشربه قلبه حتى أصبح قلبه مريضاً فزاده الله فسوقاً وكفراً وضلالاً وعصياناً قال تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا).

الأثر النحوي في الأصول العقدية عند القاضي ابن أبي العز الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

ثم قال تعالى في ختام هذا النص (فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أي أن هذا التزيين في الإيمان والتكريب في الكفر الذي بمعنى الضلال هو من اختصاص الله البتة بدليل قوله (مِنَ اللَّهِ) والتقديم هنا للاختصاص كما قال أهل العربية لأنه سبق في علمه اختيار العبد إلى الطريق الذي اعتقده وعمل وفق اعتقاده. وتجلت حكمة الله جل جلاله في تقدير الأمور.

٢- قوله تعالى (وَأَمَّا تُمُوذُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحْيُوا عَمَىٰ آلِ الْهُدَىٰ ٥٠٠).

ذكر أهل اللغة أن صيغة (استفعل) يكثر استعمالها في الطلب والضرورة واعتقاد صفة الشيء والاختصار والقوة (٦٣).

والذي أراه من هذه المعاني في هذا النص ويتمشى مع السياق أن لفظ (استحب) يدل على اعتقاد صفة الشيء أي أن الله تعالى بين طريق الخير والإيمان واختاروا طريق العمى والشر والكفر (٦٤) اعتقاداً منهم بحسنه وصوابه وإصراراً منهم واستكباراً، فما كان الله إلا ليضلهم ولا يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم وساءت مصيراً.

وخلاصة هذا الأصل إن الله سبحانه وتعالى بين طريق الخير الشر وعلم بمشيئته أن الناس سيختارون بارادتهم وبمشيئتهم أحد الطريقين فوق الله وهدى المختار لطريق الخير، وأضل وختم وطبع على قلوب الذين اختاروا طريق الشر. وهذا التوفيق والطبع خاص بالله سبحانه البتة، وان ((ادراكنا مخلوقة، محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول، والوجود اوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط)) (٦٥)، ولا يقال إن الله أجبرهم على اختيار الطريق لأنه سوف تتعطل الأوامر والنواهي القرآنية كما وسوف تتعطل معاني أسمائه الحسنی وصفاته العليا، وهذا ثابت في الشرع ويقره العقل ويبيّن لغة ولو قلنا جدلاً إن الله اجبر خلقه على الاختيار فلا يعني أن الله قد ظلم عباده لأنه هو مالكهم وخالقهم وموجودهم وحق المالك بمملوكه أن يتصرف به كما يشاء فلا ياب العقل ذلك.

الخاتمة

نستطيع القول إن القاضي ابن أبي العز ت عرض لثلاث مسائل عقديّة استعمل فيها الجانب النحوي في توجيه منحاه العقائدي المتمثل بعقيدة أهل السنة والجماعة.

أما المسألة الأولى: المتعلقة برؤية الله سبحانه وتعالى فقد نفى رؤية المولى في الدنيا ولم ينفها في الآخرة. واستدل القاضي بالنص القرآني (قَالَ لَنْ تَرَاني) ووجهه إلى المعنى المطلوب باستعماله الأثر النحوي في أن (لن) لا تفيد النفي المؤبد، وحتى لو قيدت بالتأييد لا تدل على دوام النفي، وأنها لو كانت للتأييد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها.

وقد وضحنا أن الرؤية قد تحدث في الدنيا والآخرة، واستدلنا على ذلك بالدليل اللغوي نفسه الذي استعمله القاضي وعصّدناه بغيره من الأدلة اللغوية المؤيدة لنصوص أخرى تصبّ في المسألة نفسها، وربطنا ما حصل في رؤية الله مع ما حصل في كلام الله وعلمه، واستنتجنا ما مفاده إن الموجودات لا بد أن تُرى بوسيلة الرؤية العادية أو المتطورة، وقد لا يدرك الموجود لضعف وسيلته المركزية وان الموجود قد يعلم ولا يحاط به علماً لضعف الوسيلة أيضاً الوسيلة أيضاً، وقد وضحنا هذه المعاني بالنسبة لرؤية الله سبحانه وعلمه وكلامه وأعطيناه الأدلة على ذلك وتوصلنا إلى أنه قد يهيا من العباد من يستطيع أن يرى ربه أو يكلمه كما هي رسول الله ﷺ لرؤية ربه، وهي موسى عليه السلام لكلام ربه، وهذا ما أراد به القاضي بقوله: إن الله يقوي قوي الآدميين في الصفات التي تتصل بالله تعالى من الرؤية وغيرها.

أما المسألة الثانية: فتعلق بالفوقية، فكان القاضي موفقاً في استعمال الأثر النحوي في قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) وهو تصريح بالفوقية مقرونا بأداة (من) المعينة للفوقية بالذات، أي أن الله سبحانه وتعالى فوق السماوات السبع ذاتا يراقب أعمال عباده ولا تخفى عنه خافية وليس لهذا الأمر علاقة بالتجسيم الذي تفلسف به بعضهم كما فصلنا في البحث.

أما المسألة الثالثة: وهي خلق أفعال العباد، فلم يكن القاضي أقل توفيقاً من المسألة التي قبلها فقد استعمل الأثر النحوي استعمالاً حسناً في الوصول إلى منحاه العقائدي في قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) فنفي أن تكون (ما) هنا مصدرية لأن سياق النص لا يقوّهه، فسيكون المعنى حينئذ والله خلقكم وعملكم، ونحن اتفقنا مع القاضي واغلب العلماء في

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

استعمال الأثر اللغوي في هذا الأصل في أن (ما) موصولة فحينئذ تتماشى مع سياق النص فاستعملنا أدلة أخرى في بيان هذا الأصل فتبين أن العبد يشاء ويختار ولا يخرج عن مشيئة الله ولا علمه باختباره، فإن شاء العبد طريق الخير وفقه الله وأعانته على ذلك وادخله الجنة وإن اختار العبد طريق الشر طبع الله على قلبه وختم على جوارحه وادخله جهنم والعياذ بالله وإن أفعال العباد خلق الله واكتساب العبد كما وضحه البحث.

وأخيراً أدعوا الله العليّ القدير أن أكون قد وفقته في بيان جهد هذا العالم المفضل في استعماله الأثر النحوي في الأصول العقديّة. فإن وفقته فمن فضل الله عليّ وإن زللت فمن نفسي واستغفر الله أولاً وآخراً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

- ١- شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٢٠.
- ٢- المصدر نفسه ١/٢١٤.
- ٣- المصدر نفسه ١/٢٠٩.
- ٤- المصدر نفسه ١/٢٤٩-٢٥٠.
- ٥- المصدر نفسه ١/٢١٥.
- ٦- ينظر معاني القرآن وإعرابه ٢/٢٧٨.
- ٧- مشكل إعراب القرآن ٢/٧٧٨-٧٧٩.
- ٨- المصدر نفسه ١/٢٧٩.
- ٩- ينظر متشابه القرآن ١/٢٩٦.
- ١٠- ينظر: المصدر نفسه ١/٢١٤.
- ١١- الكشاف ٢/١٥٤.

- ١٢- المصدر نفسه ٦٦٢/٤.
- ١٣- التفسير الكبير ٣٥٥/٥.
- ١٤- مجمع البيان ٣٩٩/١٠.
- ١٥- الجامع لإحكام القرآن ٦٤٠/٤.
- ١٦- البحر المحيط ٣٨٢/٤.
- ١٧- صفوة التفاسير ٤١٢/١.
- ١٨- رواه ابن ماجة والترمذي.
- ١٩- ينظر: صفوة التفاسير ٣٨٢/٢.
- ٢٠- ينظر: المصدر نفسه ١٦٥-١٦٦.
- ٢١- ينظر: التفسير الكبير ٣٥٥/٥.
- ٢٢- ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١٣٣/٢، ومجمع البيان ١٤١/٣.
- ٢٣- رواه البخاري.
- ٢٤- شرح العقيدة الطحاوية ٣٨٠/٢.
- ٢٥- ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ٣٨١/٢ وما بعدها.
- ٢٦- شرح العقيدة الطحاوية ٣٨١/٢.
- ٢٧- المصدر نفسه ٣٨٨-٣٨٩.
- ٢٨- متشابه القرآن ٢٣٧-٢٣٨.
- ٢٩- الكشاف ٦٤٠/٢، وينظر البحر المحيط ٤٩٩/٥، وروح المعاني ١٨٥/١٤.
- ٣٠- مجمع البيان ٣٦٤/٦.
- ٣١- ينظر: البحر المحيط ٤٩٩/٥.
- ٣٢- الجامع لإحكام القرآن ٣٥٠/٤، وينظر: التفسير الكبير ٢١٨/٧.

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

- ٣٣- ينظر: البحر المحيط ٣٨٢/٤.
- ٣٤- ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٥١/٦، وشفوة التفاسير ٣٨٢/١.
- ٣٥- ينظر: شفوة التفاسير ١٢٩/٢.
- ٣٦- شرح العقيدة الطحاوية ٦٣٦/٢.
- ٣٧- المصدر نفسه ٦٤٢/٢.
- ٣٨- المصدر نفسه ٦٤٣/٢-٦٤٤.
- ٣٩- جامع البيان ٧٥/٢٣ وروح المعاني ١٢٤/٢٣.
- ٤٠- معاني القرآن وإعرابه ٣٥٦/٢-٣٥٧.
- ٤١- متشابه القرآن ٢٥١/١-٢٥٢.
- ٤٢- مشكل إعراب القرآن ٧٠١/٢-٧٠٢، وينظر التفسير الكبير ٣٢٣/١٠-٣٢٤،
والجامع لإحكام القرآن ٤٥٧/٩..
- ٤٣- الكشاف ٥١/٤-٥٢.
- ٤٤- التفسير الكبير ٣٤٣/٩-٣٤٤.
- ٤٥- مجمع البيان ٣٤٣/٤.
- ٤٦- الجامع لإحكام القرآن ٤٦٨/٨.
- ٤٧- البحر المحيط ٣٦٧/٧، وينظر: روح المعاني ١٢٤/٢٣.
- ٤٨- ينظر: مشكل إعراب القرآن ٨٥٥/٢.
- ٤٩- ينظر: شرح المفصل ٤٠/٣.
- ٥٠- ينظر: المنهاج ٢٨٦.
- ٥١- ينظر: البحر المحيط ٣٧٩/٥.
- ٥٢- جامع البيان ١١١/٢٧.

- ٥٣- ينظر: الجامع لإحكام القرآن ٩/٤٥٧، والتفسير الكبير ١٠/٣٢٣.
- ٥٤- ينظر: الكشاف ٤/٥١-٥٢، وشرح العقيدة الطحاوية ٢/٦٤٣-٦٤٤، وصفوة التفاسير ٣/٣٩.
- ٥٥- ينظر: مختار الصحاح مادة (هدى).
- ٥٦- ينظر: المصدر نفسه مادة (ش ي أ).
- ٥٧- ينظر: المصدر نفسه مادة (ضلل).
- ٥٨- ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ١/١١٠.
- ٥٩- ينظر: جامع الدروس العربية ١/١٩٣.
- ٦٠- المصدر نفسه ١/١١٧.
- ٦١- ينظر: شذا العرف في فن الصرف ٣-٤٤، وجامع الدروس العربية ١/٢١٨-٢١٩.
- ٦٢- ينظر: صفوة التفاسير ٣/٢٣٤.
- ٦٣- ينظر: شذا العرف في فن الصرف ٧-٤٨، وجامع الدروس العربية ١/٢٢٠.
- ٦٤- ينظر: صفوة التفاسير ٣/١١٩.
- ٦٥- مقدمة ابن خلدون ٨٢٤-٨٢٥.

الأثر النحوي في الأصول العقديّة عند القاضي ابن أبي العزّ الدمشقي في كتابه ...

د. طلال وسام احمد

المصادر والمراجع

- ١- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ)، ط٢، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٠.
- ٢- التفسير الكبير، الفخر الرازي (٦٠٤ هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٤، بيروت، ٢٠٠١.
- ٣- جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٣١٠ هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.
- ٤- جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى غلاييني، دار العصرية، ط٢٢، بيروت، ١٩٨٩.
- ٥- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦٧١ هـ)، تحقيق وتعليق إبراهيم محمد الجمل، دار القلم للتراث.
- ٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار أحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧- شذا العرف في فن الصرف، الشيخ احمد حملاوي، مكتبة مصطفى الباي الحلبي وشركاؤه، ١٩٦٥.
- ٨- شرح العقيدة الطحاوية، القاضي علي بن أبي الدمشقي (٧٩٢ هـ)، حققه وعلق عليه وخرّج أحاديثه د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الارنأؤوط، مؤسسة الرسالة.
- ٩- شرح المفصل، ابن يعيش (٦٤٣ هـ)، عالم الكتب، بيروت.
- ١٠- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، مؤسسة مناهل العرفان، ط١، بيروت، ١٩٨٦.
- ١١- الكشاف، الزمخشري (٥٣٨ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٢- متشابه القرآن، القاضي عبد الجبار الهمداني (٤١٥ هـ)، تحقيق د. عدنان محمد زرزور، دار التراث، القاهرة.
- ١٣- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي (القرن السادس الهجري)، تصحيح وتعليق باشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٣٩ هـ.

- ١٤ - مختار الصحاح، محمد بن أبي الرازي (٦٦٦ هـ)، دار الكتب العربي، بيروت.
- ١٥ - مشكل إعراب القرآن، مكي القيسي (٤٣٧ هـ)، دراسة وتحقيق د. حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ١٩٧٥.
- ١٦ - معاني القرآن وإعرابه، الزجاج (٣١١ هـ)، شرح وتحقيق د. عبد الجليل عبدة الشبلي، عالم الكتب، ط١، بيروت، ١٩٨٨.
- ١٧ - مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٠.
- ١٨ - المنهاج في القواعد والإعراب، محمد الانطاكي، مكتبة دار الشرق، ط٤، بيروت.

(وانكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)

ابن ماجه - ٢٧٣ هـ - من حديث أبي أمامة الباهلي، كتاب الفتن، باب فِئَةِ الدَّجَالِ وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.